فى رحاب السيرة النبوية

الدكتور فراس السباعى
المدرس بكلية أصول الدين والدعوة

قصة شق الصدر :

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقه فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لامه ثم اعاده فى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى ظئره فقالوا ان محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره (١) .

وروى الإمام أحمد عن عتبه بن عبد السلمى أن رجلا سأل رسول الله ﷺ كيف كان أول شأنك يارسول الله قال كانت حاضنتى من بنى سعد ابن كعب فانطلقت أنا وابن لها فى بهم (٢) لنا ولم نأخذ معنا زادا فقلت ياأخى أذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخى ومكثت عند البهم فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران (٣) .

فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال: قال نعم فأقبلا يبتدراني فأخذانى فبطحانى إلى القفا (٤) فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتنى بماء ثلج (٥) ففسلابه جوفى ثم قال ائتنى

---

(١) صحيح مسلم الجزء الأول ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) بهم : جمع بهمه وهى ولد الضأن والمراد فى رعى الغنم
(٣) هما ملكان من الملائكة
(٤) أى اضجعاه على ظهره
(٥) فيعقد على الأرض

بماء برد (١) فغسلا به قلبي ثم قال ائتني بالسكينة فدراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه (٢) فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كفة واجعل الفا من أمته في كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق أشفق أن يخر على بعضهم (٣) فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا وتركاني وفرقت فرقا (٤) شديدا ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيته فأشفقت على أن يكون ألبس بي (٥) قالت أعيذك بالله فرحلت بعيرا لها فحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا أمي فقالت : أوادية أمانتي وذمتي ؟ وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها ذلك (٦) فقالت : أني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام (٧) .

والحكمة في شق صدره الشريف وهو عند مرضعته واستخراج العلقة منه تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية ولذلك نشأ ﷺ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ومن الزلل أما عن السبب في خلق هذه العلقة منه قال الزرقاني في الشأن في كتابه شرح المواهب «وخلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة للخلق الإنساني ولا بد ونزعها كرامة ربانية طرأت بعده فاخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتدال والرعاية من خلقه بدونها وقال

---

(١) البرد : ما ينزل من السماء كالملح ثم يذوب

(٢) حصه : أي خطة خاص الثواب أي خالطه

(٣) أي رجح رجحانا طاش منه ما للالف

(٤) فرقت فرقا : أي خفت خوفا

(٥) ألبس بي : مسني شيء من الشيطان

(٦) لم يروعها : لم يخفها

(٧) رواه أحمد والطبراني وأسناد أحمد حسن، الجد، الفتح الرباني الجزء العشرون ص ١٩٠ — ١٩٢

العلامة السبكى وغيره لو خلق سليما منها لم يكن للادميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما بزر لهم مكمل الظاهر (١) وقرر البعض أن هذه سنة الله مع أنبيائه بتكريمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس ، حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم (٢) .

وهناك من الأحاديث القوية التى توضح أن شق الصدر قد حدث مرة أخرى ورسول الله ﷺ ابن عشر سنين فعندما سأل أبو هريرة رسول الله ﷺ عن أول ما رأى من أمر النبوة قال رسول الله ﷺ « انى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل أهو هو ؟ قال نعم، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لأجد لاحدهما مسا فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعانى بلا قصر (٣) ولا هصر (٤) وقال أحدهما لصاحبه أفلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقها فيما أرى بلادم ولا وجع ، فقال له أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له أدخل الرأفة والرحمة : فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز ابهام رجلى اليمنى . فقال أغد وأسلم فرجعت بهما أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير (٥) .

---

(١) الجد فضيلة الشيخ أحمد البنا بلوغ الأمانى الجزء العشرون ص ١٩١ .

(٢) فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص ٦٨ .

(٣) القصر : القهر والاجهار .

(٤) الهصر : أى أنهما لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى .

(٥) الحديث من زوائد عبدالله بن الإمام أحمد على مسند أبيه وأخرجه =

والحكمة فى شق صدره الشريف فى هذا السن أن العشر قريب من سن التكليف فشق قلبه وطهر حتى لا يتلبس بشىء مما يعاب على الرجال عند التكليف وقد أخرج أبو نعيم والبيهقى فى دلائلهما والطيالسى والحارث فى مسنديهما من حديث عائشة شق صدره الشريف واستخراج قلبه مرة أخرى « ثالثة » عند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء ، كما أخرج الشيخان فى صحيحهما والإمام أحمد فى مسنده وغيرهم من حديث أنس وقوع شق صدره الشريف مرة أخرى عند الاسراء ويختلف العلماء حول معنى شق الصدر فمنهم من يرى أنه شق حقيق من قبيل المعجزة وبعضهم يرى أن حدث مرتين والبعض يرى أنه حدث أربع مرات ومنهم من يرى أن شق الصدر لم يقع حقيقة بل هو معنى مجازى قصد به طهارة قلب النبى ﷺ عما يعلق بقلوب البشر ، وهناك من يشكك فى هذه الواقعة الصادقة وينكرها انكارا تاما .

ومن العلماء المحدثين الذين يرون أن شق الصدر معنى مجازى قصد به طهارة القلب الشيخ محمد الغزالى حيث يقول .

أن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ،

وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الرقى لا فى مقاومة التدلى وفى تطهير العامة من المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله . . . ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنسانى ومفاتن الحياة

= ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك وابن عساكر والضياء فى المختاره وأورده الهيثمى .

الأرضية وقد أورد الخازن فى تفسيره للقصة الأولى -أيام الرضاعة- عند تفسيره لقوله عز وجل « ألم نشرح لك صدرك »(١) وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب ويحسن أن نعرف شيئا عن أساليب الحقيقه والمجاز التى تقع فى السنة(٢)

ومن العبارات السابقة يتضح لنا أن الشيخ الغزالى يرى أن شق الصدر لم يقع حقيقة بل هو أسلوب مجازى يفيد شرح الصدر وطهارة القلب .ويتفق هذا الراى مع رأى المستشرق در منجم والذى يقرر أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير مايفهم من ظاهر الآيات (ألم نشرح لك صدرك) وأن مايشير القرآن إليه إنما هو عمل روحى بحت

أما المستشرق سير وليم موير فينكر قصة شق الصدر تماما ويقول : « إن كانت حليمة وزوجها قد نبها لشىء أصاب الطفل فلعله نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه » ولعل محمد حسين هيكل قد ذكر أقوال المستشرقين لاثبات وجهة نظره التى تنكر قصة شق الصدر والتى تنبع من أسلوبه فى البحث حيث يستبعد الوقائع الغير مألوفة والتى تدخل فى باب المعجزات ويدعى أن ذلك هو أسلوب البحث على على الطريقة العلمية ومن مظاهر إنكار هيكل لهذه القصة قوله « فى هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التى يقصونها من أنه ..

وقوله وكذلك يرويها الطبرى لكنه يحيطها بالريبة اذ يذكرها فى هذه السنة من حياة محمد ثم يعود فيذكر أنها وقعت قبيل البعث وسنه اربعون سنة » وقوله لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملائكين هذه ويرونها ضعيفة السند ، فالذى رأى الرجلين فى رواية كتاب

---

(١) سورة الانشراح / الآية الأولى

(٢) الشيخ محمد الغزالى فقه السيرة صـ ٦٥ ، ٦٦

السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا ثم يعود هيكل إلى بيان منهجه العقلي فيقول وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق ويرون ماورد من ذلك غير متفق مع مادعا القرآن إليه من النظر في خلق الله (١)

الرد على من يؤول معجزة شق الصدر أو ينكرها .

ناقش كثير من علماء الحديث والسيرة الآراء الخاطئة حول شق الصدر ويتلخص الرد على ادعاءات المستشرقين وغيرهم حول هذه المعجزة فيما يأتي:

أولا : العبرة في ثبوت أي واقعة ترجع إلى قوة الدليل الذي تستند عليه هذه الواقعة وصحته

ثانيا : دليل معجزة شق الصدر ليس هو الاية الكريمة (ألم نشرح لك صدرك) وإنما الدليل عليها الأحاديث التي وردت بكتب السنة الصحيحة والروايات التي وردت بكتب التاريخ الموثوق بها .

ثالثا : الأحاديث التي روت هذه المعجزة ثبتت في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل وصحيح ابن حبان ومجمع الزوائد للهيثمي وغيرهم حتى قال بعض العلماء إنها متوافرة في أعلا درجات الصحة وقد ثبتت هذه المعجزة سندا ومتنا وهي خالية من كل مطعن حسب قواعد علم الحديث وأصوله(٢)

---

(١) محمد حسين هيكل حياة محمد ص ١٢٧ - ١٢٩

(٢) د/عبد الموجود محمد عبداللطيف وآخرون في ظلال السيرة النبوية مذكرات ص ٥٢

رابعا . أما بالنسبة لرواية كتب السيرة والتاريخ فلا يقلل من قيمة هذه الرواية إن جاءت فى سيرة ابن اسحاق مرسلة عن رجل صحابى لم يسم فمن المعلوم عند علماء الحديث أن الصحابة كلهم عدول وأن الجهل باسم الصحابى لا يضر بصحة الحديث(١) .

وبالنسبة للأدعاء بأن رواية الطبرى مريبة حيث ذكر وقوع القصة فى طفولة محمد ﷺ ثم عاد وقرر أنها وقعت قبيل البعث فمردود بأن الطبرى يقصد تكرار وقوع هذه القصة وقد سبق بيان وقوعها قبيل البعثة بغار حراء .

خامساً : وأما التشكيك فى الرواية على أساس أنها رواية طفل أو طفلين فيرد عليه بأن روايه الأطفال أصدق من رواية الكبا لسلامة فطرتهم وخلوهم من الأغراض والأهواء ومع ذلك فقد تكررت هذه الروايه بعد البعثة وأخبر رسول الله ﷺ عن حدوثها مرة أخرى ليلة الاسراء والمعراج(٢)

سادساً : مادامت للمعجزة قد تثبت لدينـــا بالأدلة الصحيحة ثبوتا حقيقيا فلا يجوز تأويل خبرها بدلالات مجازية لأن الأصل فى الدلالات الدلالة الحقيقية(٣) ولا يجوز الانصراف عنها إلى الدلالة المجازية إلا إذا توافرت عدة شروط لم تحقق فى الرواية محل المناقشة

وقد سبق بيان الحكمة من هذه الواقعة التى حدثت بشكلها المادى الحسى وحدوثها بهذا الشكل يدخلها فى عداد المعجزات التى يؤيدبها الحق تبارك وتعالى رسله ويهيىء بها عقول عباده لتصديقهم والإيمان بهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣

(٢) د / محمد الطيب النجار القول المبين ص ٧١ ، ٧٢

(٣) د / محمد سعيد رمضان البوطى فقه السيرة ص ٥٢